

(وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْبِكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون (٦٠) قَالُوا سُرَّادُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤)) .

[يوسف : ٥٨ - ٦٤] .

- قال ابن عطية : قال السدي وغيره : سبب مجيئهم أن الجماعة التي أُنذر بها يوسف أصابت البلاد التي كان بها يعقوب ، وروي أنه كان في الغربيات من أرض فلسطين بغور الشام. وقيل : كان بالأولاج من ناحية الشعب ، وكان صاحب بادية له إبل وشاء ، فأصابهم الجوع ، وكان أهل مصر قد استعدوا وادخروا من السنين الخصبية ، فكان الناس يمتارون من عند يوسف ، وهو في رتبة العزيز المتقدم ، وكان لا يعطي الوارد أكثر من حمل بعير ، يسوي بين الناس .
- وقال القرطبي : قوله تعالى (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ) أي : جاؤوا إلى مصر لما أصابهم القحط ليمتاروا ؛ وهذا من اختصار القرآن المعجز.

قال ابن عباس وغيره: لما أصاب الناس القحط والشدة، ونزل ذلك بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده للميمرة، وذاع أمر يوسف عليه السلام في الآفاق، لئنه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته؛ وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدة بالناس يجلس (للناس) عند البيع بنفسه، فيعطيهم من الطعام على عدد رؤوسهم، لكل رأس وسقاً .

- قال ابن عاشور : ... وكان مجيء إخوة يوسف عليه السلام إلى مصر للميمرة عند حلول القحط بأرض مصر وما جاورها من بلاد فلسطين منازل آل يوسف عليه السلام ، وكان مجيئهم في السنة الثانية من سني القحط.
- وإنما جاء إخوته عدا بنيامين لصغره ، وإنما رحلوا للميمرة كلهم لعل ذلك لأن التزويد من الطعام كان بتقدير يراعى فيه عدد המתارين ، وأيضاً ليكونوا جماعة لا يطمع فيهم قطاع الطريق ، وكان الذين جاءوا عشرة .
- (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ) جاءوا إليه جميعاً - ما عدا «بنيامين» - وهو الشقيق الأصغر ليوسف ليحصلوا منه على أكبر كمية من الطعام على حسب عددهم ، وليكون عندهم القدرة على صد العدوان إذا ما تعرض لهم قطاع الطرق الذين يكثرون في أوقات الجذب والجوع .

(فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ) لأنه كان مرتقباً لحضورهم لعلمه بجذب بلادهم وعقد همتهم بهم ، مع كونه يعرف هياتهم في لباسهم وغيره ، ولم يتغير عليه كبير من حالهم.

- قال ابن عاشور : ودخولهم عليه يدل على أنه كان يراقب أمر بيع الطعام بحضوره ويأذن به في مجلسه خشية إضاعة الأوقات لأن بها حياة الأمة.

وعرف يوسف عليه السلام إخوته بعد مضي سنين على فراقهم لقوة فراسته وزكاته عقله ودونهم.

- (وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) لم يعرفوه لطول العهد، ومفارقتهم إياهم في سن الحداثة ولاعتقادهم أنه قد هلك، ولذهابه عن أوهامهم لقله فكرهم فيه، واهتمامهم بشأنه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله التي فارقه عليها طريقاً في البئر، حتى لو تخيلوا أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم، ولأن الملك مما يبدل الزبي، ويلبس صاحبه من التهييب والاستعظام ما ينكر له المعروف .
- قال الماوردي: لأنه فارقه صغيراً فكبر، وفقيراً فاستغنى، وباعوه عبداً فصار ملكاً، فلذلك أنكروه، ولم يتعرف إليهم ليعرفوه.

- **قال القرطبي** : لأنهم خلّفوه صبيّاً ، ولم يتوهّموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة ، مع طول المدّة ؛ وهي أربعون سنة.
- ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن الجماعة التي حدثت في السبع السنين الشداد شملت مصر وما جاورها من البلاد- كما سبق أن أشرنا-.
- كما يؤخذ منها أن مصر كانت محط أنظار المعسرّين من مختلف البلاد بفضل حسن تدبير يوسف عليه السلام وأخذه الأمور بالعدالة والرحمة وسهره على مصالح الناس، ومراقبته لشئون بيع الطعام، وعدم الاعتماد على غيره حتى إن إخوته قد دخلوا عليه وحده، دون غيره من المسئولين في مصر.
- (**وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ**) أصل الجهاز- بفتح الجيم وكسرهما قليل-: ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع، يقال: جهّز المسافر، أي هيأت له جهازه الذي يحتاج إليه في سفره، ومنه جهاز العروس وهو ما تزف به إلى زوجها، وجهاز الميت وهو ما يحتاج إليه في دفنه .
- **قال ابن عطية** : و الجهاز ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع وكل ما يحمل ، وكذلك جهاز العروس وجهاز الميت. والمراد: أن يوسف بعد أن دخل عليه إخوته وعرفهم، أكرم وفادتهم. وعاملهم معاملة طيبة جعلتهم يأنسون إليه، وهياً لهم ما هم في حاجة إليه من الطعام وغيره، ثم استدرجهم بعد ذلك في الكلام حتى عرف منهم على وجه التفصيل أحوالهم.
- (**قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْبِكُمْ**) قول يوسف هذا يستلزم : أن حديثاً متنوعاً نشأ بينه وبينهم ، عرف منه يوسف، أن لهم أخاً من أيبهم لم يحضر معهم وإلا فلو كان هذا الطلب منه لهم بعد معرفته لهم مباشرة، لشعروا بأنه يعرفهم وهو لا يريد ذلك.
- **قال الرازي** : واعلم أنه لا بد من كلام سابق حتى يصير ذلك الكلام سبباً لسؤال يوسف عن حال أحيهم ، ومن هنا قال المفسرون: إن قوله ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْبِكُمْ يقتضى كلاماً دار بينه وبينهم نشأ عنه هذا الطلب . ومما قالوه في توضيح هذا الكلام: ما روى من أنهم بعد أن دخلوا عليه قال لهم: من أنتم وما شأنكم؟ فقالوا: نحن قوم من أهل الشام، جئنا نمتار، ولنا أب شيخ صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب، فقال لهم: كم عددكم قالوا عشرة، وقد كنا اثني عشر، فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك، وكان أحبنا إلى أبنينا، وقد سكن بعده إلى أخ له أصغر منه، هو باق لديه يتسلى به، فقال لهم حينئذ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْبِكُمْ .
- (**أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ**) يرغبهم في الرجوع إليه .
- أي : ألا ترون أنني أكرمت وفادتكم، وأعطيتكم فوق ما تريدون من الطعام، وأنزلتكم ببلدي منزلاً كريماً ... وما دام أمري معكم كذلك، فلا بد من أن تأتوني معكم بأخيكم من أيبكم في المرة القادمة، لكي أزيد في إكرامكم وعطائكم.
- **قال الرازي** : قوله تعالى (**وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ**) أي : خير المضيفين لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم.
- (**فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ**) أي : إن لم تأتوني بأخيكم فليس لكم عندي بعد اليوم ميرة ، ولا تقربوا بلادي مرة ثانية ، رغبتهم ثم توعدهم .
- **قال الماوردي** : يعني فيما بعد لأنه قد وفاهم كيلهم في هذه الحال.
- **قال الرازي** : وذلك لأنهم كانوا في نهاية الحاجة إلى تحصيل الطعام ، وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده ، فإذا منعهم من الحضور عنده كان ذلك نهاية الترهيب والتخويف ، ث
- هذا التحذير منه عليه السلام لهم، يشعر بأن إخوته قد ذكروا له بأنهم سيعودون إليه مرة أخرى، لأن ما معهم من طعام لا يكفيهم إلا لوقت محدود من الزمان.

قال في البحر : والظاهر أن كل ما فعله يوسف عليه السلام كان بوحى من الله والا فمقتضى البر أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه لكن الله أراد تكميل أجر يعقوب ومحتته ، ولتفسر الرؤيا الأولى .

• **قال القرطبي** : إن قيل : كيف استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه؟ قيل له : عن هذا أربعة أجوبة :

أحدها : يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك ابتلاءً ليعقوب ، ليعظم له الثواب ؛ فاتبع أمره فيه .

الثاني : يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقوب على حال يوسف عليهما السلام .

الثالث : لتضاعف المسرة ليعقوب برجوع ولديه عليه .

الرابع : ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته ؛ لميل كان منه إليه ؛ والأول أظهر ، والله أعلم

(**قَالُوا سُرَّادُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ**) المرادة الاجتهاد في الطلب .

أي : قال إخوة يوسف له بعد أن أكد لهم وجوب إحضار أخيهم لأبيهم معهم: (سُرَّادُ عَنْهُ أَبَاهُ) أي: سنطلب حضوره معنا من أبيه برفق ولين ومخادعة ومحايلة «وإننا لفاعلون» هذه المرادة باجتهاد لا كلل ولا ملل معه وفاء لحقك علينا .

وقولهم هذا يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يشعرون بأن إحضار أخيهم لأبيهم معهم - وهو «بنيامين» الشقيق الأصغر ليوسف -، ليس أمراً سهلاً أو ميسوراً، وإنما يحتاج إلى جهد كبير مع أبيهم حتى يقنعوه بإرساله معهم .

وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بَضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ (الفتيان: جمع فتى والمراد بهم هنا من يقومون بخدمته ومساعدته في عمله .

والبضاعة في الأصل: القطعة الوفيرة من الأموال التي تقتنى للتجارة، مأخوذة من البضع بمعنى القطع .

والمراد بها هنا: أثمان الطعام الذي أعطاه لهم يوسف عليه السلام .

والرحال: جمع رحل، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب .

قال الشوكاني : والمراد هنا : الأوعية التي يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام .

والمراد بالبضاعة هنا هي التي وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام ، وكانت نعالاً وأدماً .

فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلاً عليهم . وقيل : فعل ذلك ليرجعوا إليه مرة أخرى لعلهم لا يقبلون الطعام إلا بثمن . قاله

الفراء . وقيل : فعل ذلك ليستعينوا بها على الرجوع إليه لشراء الطعام . وقيل : إنه استقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام .

والمعنى : وقال يوسف عليه السلام لفتيانته الذين يقومون بتلبية مطالبه: أعيذوا إلى رحال هؤلاء القوم - وهم إخوته - الأثمان التي دفعوها لنا

في مقابل ما أخذوه منا من طعام، وافعلوا ذلك دون أن يشعروا بكم، لعل هؤلاء القوم عند ما يعودون إلى بلادهم، ويفتحون

أمتعتهم، فيجدون فيها الأثمان التي دفعوها لنا في مقابل ما أخذوه من طعام وغيره .

لعلهم حينئذ يرجعون إلينا مرة أخرى، ليدفعوها لنا في مقابل ما أخذوه .

• **قال الرازي** : اختلفوا في السبب الذي لأجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم في رحالهم على وجوه :

الأول : أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه ، علموا أن ذلك كان كرمًا من يوسف وسخاءً محضاً فيبعثهم ذلك على العود إليه والحرص على معاملته .

الثاني : خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى .

الثالث : أراد به التوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان القحط .

الرابع : رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إلى الطعام لؤم .

الخامس : قال الفراء : إنهم متى شاهدوا بضاعتهم في رحالهم وقع في قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة في رحالهم على سبيل

السهو وهم أنبياء وأولاد الأنبياء فرجعوا ليعرفوا السبب فيه ، أو رجعوا ليردوا المال إلى مالكة .

السادس : أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منة.

(لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ) أي : لكي يعرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم وفتحوا أوعيتهم .

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) أي : لعلهم يرجعون إلينا إذا رأوها ، فإنه علم أن دينهم يحملهم على رد الثمن ، لأنهم مطهرون عن أكل الحرام فيكون ذلك أدعى لهم إلى العود إليه .

(فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ) أي : فلما عادوا إلى أبيهم قالوا له - قبل أن يفتحوا متاعهم - يا أبانا لقد أُنذرتنا بمنع الكيل في المستقبل إن لم نأت بأخيينا بنيامين ، فإن ملك مصر ، ظن أننا (جواسيس) وأخبرناه بقصتنا فطلب أختانا ليتحقق صدقنا .

(فَأَرْسَلْنَا مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ حَافِظُونَ) أي : أرسل معنا أختانا (بنيامين) لنأخذ ما نستحقه من الحبوب التي تُكال لنا

[وإنا له حافظون] أي نحفظه من أن يناله مكروه

(قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ) أي : قال لهم يعقوب : كيف آمنكم على بنيامين وقد فعلتم بيوسف بعد أن ضمنتم لي حفظه ، ثم خنتم العهد ؟ فأخاف أن تكيدوا له ، كما كدتم لأخيه ؟ فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم ، وإنما أثق بحفظ الله .

• قال ابن عطية : قوله (هل) توقيف وتقرير ، وتأم يعقوب عليه السلام من فرقة بنيامين ، ولم يصرح بمنعهم من حمله لما رأى في ذلك من المصلحة ، لكنه أعلمهم بقلة طمأنينته إليهم. وأنه يخاف عليه من كيدهم ، ولكن ظاهر أمرهم أنهم كانوا نبؤوا وانتقلت حالهم ، فلم يخف كمثل ما خاف على يوسف من قبل ، لكن أعلم بأن في نفسه شيئاً ، ثم استسلم لله تعالى ، بخلاف عبارته في قصة يوسف.

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا) أي : حفظ الله خير من حفظكم .

(وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) فهو سبحانه أرحم من والديه وإخوته ، فأرجو أن يمنّ عليّ بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين . فاستسلم يعقوب عليه السلام لله وتوكل عليه .

• قال القرطبي : في هذا دليل على أنه أجابهم إلى إرساله معهم ؛ ومعنى الآية : حفظ الله له خير من حفظكم إياه. قال كعب الأحبار: لما قال يعقوب: "فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا" قال الله تعالى: وعزّي وجلالي لأردنّ عليك ابنيك كليهما بعدما توكلت عليّ.

• قال الخازن : وظاهر هذا الكلام يدل على أنه أرسله معهم ، وإنما أرسله معهم وقد شاهد ما فعلوا بيوسف لأنه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما كان بينهم وبين يوسف أو أن يعقوب شاهد منهم الخير والصلاح لما كبروا فأرسله معهم أو أن شدة القحط وضيق الوقت أحوجاه إلى ذلك .

الفوائد :

١- من حسن أخلاق يوسف أنه عرف إخوته ولم يعنفهم .

٢- أن سنوات الجذب عمت البلاد وأرهقت العباد .

٣- القيادي الناجح يكون حاضراً في كل زمان ومكان .

٤- أن الترغيب يؤنس النفس ويستميلها .

٥- إكرام الضيف والعناية به .

٦- أثر الإيمان في السلوك ، إذ عرف يوسف أن إخوته لا يستحلون أكل مال بغير حقه .

٧- كرم يوسف عليه السلام .

٨- صاحب الحاجة قد يؤثر نفسه على غيره لشدة حاجته ولهفته .

٩- بيان مدى توكل يعقوب على الله .

١٠- التفويض إلى الله تعالى والاعتماد عليه في جميع الأمور .

١١- ترجيح المصلحة العامة على الخاصة .